

## القرآن وفكرة التقدم الاجتماعي



تشييع فكرة التقدم الصاعد لحركة التاريخ على ألسنة كثير من الفلاسفة الذين يميلون إلى تأكيد الفعل الإنساني، وإنجازاته. ويمكن أن ترجع فكرة التقدم من حيث أصولها الأولى إلى آراء - بيكون - وديكارت - عالمي النهضة العلمية في الغرب. ولكن الفكرة ازدادت انتشاراً في أواخر القرن السابع عشر حين اشتد الجدل بين أنصار القديم، وأنصار الحديث من النقاد، والأدباء، فقد اضطر أنصار الحديث دفاعاً عن موقعهم إلى اتهام دعاة القديم بأنهم قد وقعوا في وهم قباس خاطئ، وذلك حين نظروا إلى من سبّقهم من القدماء بوصفهم أقدم عهداً، فظنوا أنّهم لا بدّ أن يكونوا أرجح عقلاً. ولكن الإنسان كما يكتب سندًا، فتزداد حكمته مع الأيام نضجاً وأصالة، فكذلك تمضي الإنسانية مع الزمان نحو التقدم. فإذا كان للقديم فضل السبق، فإن للاحقه فضل الكمال. غير أن - باسكال - يعالج إشكالات الجدل بين القديم والحديث، فيشبّه أطوار الحياة البشرية على الأرض بحياة إنسان واحد، قُدْرَ له أن يظل حياً منذ فجر البشرية مضيّفاً معارفه كل جديد "فليس الإنسان وحده هو الذي يتقدم في معارفه العلمية يوماً" بعد يوم، بل إنّ البشر مجتمعين يحققون تقدماً مستمراً في معارفهم، كلما ازداد العالم قدماً [1].

أما القرآن الكريم، فيطرح فكرة التقدم الاجتماعي من خلال مصطلحاته عن الخير والمنافع، والبحث عن الأحسن والأفضل والأجمل من الأفكار، والقيم والأشياء الأحسن، ما يطلق عليه -

القرآن أزّه الأقرب للتفوي، بوصفها المشكاة الثابتة لتنوير العقل والقلب، وبها الاستنارة لتبديد ما يطأ على الحياة الإنسانية من مصاعب، وأزمات: (وَمَنْ يَتَّقِ الدَّاءَ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا) (الطلاق/2). وبكلمة، فإن كل نشاط فردي أو جماعي - يحقق الغايات النبيلة لرسالة القرآن في الاجتماع الإنساني وعلاقته الوجودية - هو تقدم. كما أنّ القرآن يَحمل على كل ركود علمي أو سياسي أو اقتصادي؛ يُشّل حركة التقدم نحو إحقاق الوعي بحقائق الإيمان، وهو إحقاق الحقّ من جميع جوانبه وقضاياها؛ ليبني نموذجه الخاص في معنى الاستقرار الاجتماعي ومسؤولياته. ومن أعظم ثمرات هذا التصور أزّه ينفي جميع المعارك المصطنعة بين فئات المجتمع؛ لأنّ الجميع منصرف بكليته - بآماله وآمانيه - نحو هدف أعلى تعمل من أجله كل القوى المحرّكة للمجتمع، وذلك بعقيدة ترى أنّ أحلام التقدم يجب أن تشمل الإنسانية كلها، دون أي احتكار لمنابع التطور، ومقومات التقدم. بهذا فالتقدم فلسفة متفائلة، ترى أنّ الكمال البشري غير محدود، وأن تاريخ البشرية يمرّ في مسار تقدمي تتطور خالله معرفة الإنسان، وتقترب شيئاً فشيئاً نحو الهدف النهائي للمجتمع البشري والذي هو: تحقيق الحرية والكمال. وعلى هذا الأساس تكون النظرية القرآنية أبعد أثراً من سواها في التأسيس لعالمية التقدم، ذلك بسموّ مضمونها المادي والأخلاقي، وبصرىح ما يظهره من النداءات القرآنية، الموجّهة لكل ما يهمّ الناس - كل الناس - للاعتماد بكامل الأسباب المادية والمعنوية، والتي تعمل على تحقيق التقدم، والمحافظة عليه بأبعاده الشاملة. والتقدم في فلسفة - كونت - ينقسم إلى ثلاثة أقسام هي: التقدم العقلي، والتقدم المادي، والتقدم الخلقي، ولقد كان - كونت - في كل ذلك متأثراً بفكرة التطور في العلوم الطبيعية، غير أزّه كان يلجأ إلى التاريخ لدراسة تطور الفكر، والمراحل التي مرّ بها. ويبدو أنّ المفكرين في عصر التنوير الأوروبي قد سعوا إلى تبرير مكانة الإنسان في عالم الطبيعة، فاعتبروا قوانين التاريخ متساوية لقوانين الطبيعة؛ لكن ذلك فتح الباب أمام سوء تفاهم أكثر خطورة، إذا إزّه أتاح الخلط بين الوراثة البيولوجية التي تشكل مصدر - التطور - والاكتساب الاجتماعي الذي يشكل - بدوره - مصدر التقدم في التاريخ؛ بحسب إدوارد كار في كتابه: ما هو التاريخ؟ وعلى الرغم من هذه الآمال الطيبة والنوايا الحسنة التي كان يضمرها أنصار نظرية التقدم على اختلاف مذاهبهم الفلسفية، فقد واجهت هذه النظرية كثيراً من النقد، بعضه يتصل بمنهج أصحابها في البحث، وبعضه يتصل بالقيم التي يصدرون عنها. من ذلك ما أشار إليه بعض الباحثين من مأخذ تتعلق بنقدتهم العنيف للعمر الوسيط بمعايير معاصرة؛ لأنّه لم يعد في نظرهم عاملـاً مهمـاً من عوامل تشكيل الحضارة. ولقد مسّت انتقاداتهم للخرافة والفكر الغبي فكرة الدين نفسها؛ حين ألحّت عليهم فكرة التخلص من سلطان الكنيسة، فاكتفوا بالوقوف من فكرة - التقدم - عند هذا المظهر المناوئ للدين، دون

التغلغل في سياق أحداث التاريخ للكشف عن مسارها الباطني[2]. ولا يخفى أن معضلة الأزمة الحضارية التي تسود جدل العلاقة بين الإسلام والغرب هي معضلة المصراع، لا على الحياة، وإنما على مفهومية هذه الحياة؛ بين رؤيتين: إحداهما تقلل مفهوم التقدم والتطور على مجالات الانتعاش التكنولوجي، والرفاـه المادي للإنسان، وثانيةهما تفتح مفهوم التقدم على نظام القيم؛ لجعل منها شرطاً ومقاييساً لتقـدم الأُمم، والشعوب. فلا معنى لأي تـقدم إنساني، مع شيـوع ظاهرة التوحش والطغيان والظلم؛ في العلاقات السائدة من عـدـاؤـات الدول على بعضـها؛ لاستبعادـها، ونهـب ثروـاتها. كما هو الحال في أمثلة العـدوـان على فـلـسـطـين وـالـعـراـق وـلـبـنـان... وـسوـاـها من الأعمـال الإـرـهـابـية الـوـحـشـية الـتـي لا تـمـتـ بـأـيـّـةـ صـلـةـ لـفـكـرـةـ التـقـدـمـ، أوـ التـفـوقـ الحـضـارـيـ المـزـعـومـ. فإذا كان هـاجـسـ الفلـسـفـةـ الغـرـبـيـةـ منـذـ نـهـوضـهاـ فيـ عـصـرـ الـأـنـوارـ؛ـ أـنـهـ قد طـرـحتـ مرـحـلـةـ الـكـمـالـ بـوـصـفـهاـ ذـرـوـةـ التـقـدـمـ،ـ فـإـنـ مـتـابـعـةـ نـمـوـ الـحـضـارـةـ الغـرـبـيـةـ يـكـشـفـ عـنـ تـعـقـيدـ بالـغـ الخطـوـرـةـ فـيـ ماـ نـرـاهـ منـ رـدـّـةـ شـامـلـةـ عـلـىـ مـفـاهـيمـهاـ الـأـخـلـاقـيـةـ،ـ وـالـحـضـارـيـةـ.ـ وـمـاـ يـهـمـّـنـيـ منـ هـذـهـ الـمـلـاحـظـةـ أـنـ فـكـرـةـ -ـ التـقـدـمـ -ـ الـغـرـبـيـةـ،ـ وـالـتـيـ تـأـسـسـ عـلـىـ تـهـدـيـمـ الـقـدـيمـ،ـ وـنـفـيـهـ بـعـدـواـنـيـةـ غـيـرـ مـبـرـرـةـ لـمـورـرـوـثـاتـهـ،ـ نـرـاهـاـ الـيـوـمـ،ـ وـقـدـ حـرـّـكـتـ عـجـلـاتـ حـضـارـتـهاـ نحوـ هـاوـيـةـ الدـورـانـ فيـ دـائـرـةـ مـفـرـغـةـ مـظـلـمـةـ،ـ لـاـ يـضـيـئـهـ بـصـيمـ منـ نـورـ الـبـحـثـ عـنـ الـهـدـفـ الـأـعـلـىـ مـنـ وـجـودـ إـلـاـنـسـانـ.ـ يـقـولـ -ـ غـوـتهـ -ـ لـقـدـ صـارـ إـلـاـنـسـانـ أـكـثـرـ ذـكـاءـ وـوـعـيـاـ؛ـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـصـرـ أـكـثـرـ سـعـادـةـ وـأـنـبـلـ خـلـقاـ.ـ وـفـيـ نـقـدـ التـقـدـمـ الزـائـفـ يـعـلـنـ الـفـيـلـسـوفـ -ـ جـ.ـ بـ.ـ شـوـ -ـ أـنـ مـاـ يـسمـىـ -ـ بـالـمـدـنـيـةـ -ـ مـرـضـ يـنـشـأـ مـنـ بـنـاءـ الـمـجـتمـعـاتـ مـنـ موـادـ عـفـنـةـ.ـ ثـمـ يـتـسـأـلـ:ـ أـيـنـ التـقـدـمـ المـدـّـعـىـ؟ـ إـنـ القـتـلـ بـالـبـنـدـقـيـةـ لـاـ يـقـلـ إـيـلـاماـ عـنـ القـتـلـ بـسـهـمـ مـسـمـوـمـ،ـ ثـمـ يـبـالـغـ فـيـ تـشـاؤـمـهـ،ـ فـيـعـلـنـ أـنـّـهـ مـنـ الـأـفـضـلـ لـنـاـ أـنـ تـنـفـقـ عـلـىـ أـنـ إـلـاـنـسـانـ سـوـفـ يـعـوـدـ إـلـىـ وـثـنـيـتـهـ وـبـدـائـيـتـهـ يـوـمـاـ مـاـ؛ـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ كـلـ مـاـ مـرـ بـهـ مـنـ تـطـوـرـ.ـ وـتـشـتـدـ نـزـعـةـ التـشـاؤـمـ عـنـ بـعـضـ الـفـلـاسـفـةـ مـنـ أـمـثالـ اـشـبـلـنـجـرـ وـأـلـبرـتـ شـفـيـتـزـرـ -ـ الـلـذـيـنـ يـرـيـانـ فـيـ الـحـضـارـةـ الـحـدـيـثـةـ عـالـمـاـ صـنـاعـيـاـ،ـ آـلـيـاـ،ـ خـالـيـاـ،ـ مـنـ الـرـوـحـ،ـ وـالـقـيـمـ الـأـخـلـاقـيـةـ[3]ـ.ـ وـمـنـ طـرـائـفـ الـفـلـاسـفـةـ الغـرـبـيـةـ السـجـالـ بـيـنـ مـنـ يـدـعـوـ إـلـىـ التـقـدـمـ الـقـائـمـ عـلـىـ مـبـدـأـ الـمـنـفـعـةـ،ـ وـبـيـنـ مـنـ يـدـعـوـ إـلـيـهـ عـلـىـ مـبـدـأـ التـقـدـمـ الـفـكـريـ وـالـمـعـرـفـيـ؛ـ إـنـ أـنـصـارـ نـظـرـيـةـ التـقـدـمـ الـفـكـريـ كـانـواـ يـنـتـقـدـونـ نـظـرـيـةـ التـقـدـمـ الـمـادـيـ؛ـ بـالـقـوـلـ بـأـنـّـهـ أـشـبـهـ بـسـبـاقـ الـفـئـرانـ لـلـوـصـولـ إـلـىـ ثـرـاءـ؛ـ رـدـاـ عـلـىـ بـعـضـ الـفـلـاسـفـةـ الـأـوـرـوـبـيـيـنـ الـذـيـنـ أـطـلـقـوـاـ شـعـارـ "ـكـلـمـاـ زـادـتـ ثـرـوـةـ الـجـمـاعـةـ،ـ زـادـ نـصـيبـهـ مـنـ السـعـادـةـ".ـ وـعـلـىـ أـنـّـ الـمـفـارـقـةـ السـاخـرـةـ فـيـ الـمـشـهـدـ الـحـضـارـيـ الـراـهـنـ؛ـ أـنـ تـرـىـ مـفـكـرـيـنـ مـنـ الـعـربـ وـالـمـسـلـمـيـنـ؛ـ يـرـاـهـنـونـ عـلـىـ نـظـرـيـةـ التـقـدـمـ الـقـائـمـ عـلـىـ مـبـدـأـ الـمـنـفـعـةـ.ـ فـيـ حـيـنـ أـنـ رـمـلـاءـ لـهـمـ فـيـ الـغـرـبـ يـعـتـرـفـونـ بـأـنـهـمـ حـسـارـتـهـمـ قـدـ وـصـلـتـ إـلـىـ طـرـيقـ مـسـدـودـ،ـ وـأـنـ عـلـيـهـمـ النـهـوضـ بـثـوـرـةـ فـكـرـيـةـ جـديـدةـ؛ـ إـخـرـاجـ حـسـارـتـهـمـ الـوـاقـفـةـ وـوـجـهـهـاـ إـلـىـ الـحـائـطـ الـالـكـتـرـوـنـيـ،ـ وـقـدـ عـمـيـتـ عـلـيـهـ شـاشـةـ الـبـداـيـةـ،ـ فـضـاعـتـ مـنـ رـؤـيـتـهـ شـاشـةـ النـهاـيـةـ.

ويكفي للتدليل على صحة ما نقول: أن نذكر أنَّ الميزان الأخلاقي الغربي، "لم يستنكر إبادة أهل أمريكا الأصليين - وهم المعروفون بالهنود الحمر. فقد اشتركت كل الشعوب الأوروبية المهاجرة إلى العالم الجديد في هذه الجريمة الجماعية. على أنَّ الفكر الغربي نفسه، والقائم على أفكار التقدميين؛ لم يستنكر الاستعمار فقط، وأباح إذلال الشعوب وانتهاب أموالها، وإهدار كراماتها؛ لأنَّ مفهوم حقوق الإنسان عندهم اقتصر على الإنسان الغربي. فهو وحده الإنسان، أما سواه فـ"مِثْلُهُ" ما شئت وكيف شئت. وعندما أسقط الأمريكيون قنابلهم الذرية على "هiroshima" و"ناجازاكي" لم ينكر ذلك عليهم أحد من أهل الغرب؛ لأنَّ الضحايا في هذه الحالة كانوا يابانيين، غير أوروبيين"<sup>[4]</sup>. لم ينحرف مفهوم التقدم عن دلالته من منظور قرآني، في ما يدعو إليه من ضبط التوازن بين المادي والروحي، ويلتزم قيم العدالة والحقوق لجميع البشر، دون الإخلال بشرائط ديمومتها، وخصوصيتها التي لا تكفي عن النماء، والعطاء. أقول: لم ينحرف مفهوم التقدم عن ذلك كله، إلا في بعض الحقب التي روَّجت مفاهيم الفصل بين الدين والحياة. ومن هنا، يميل الباحثون في الحضارة الإسلامية إلى أنَّ الأطر والنظم الحضارية تميل إلى التأكُّل والفساد، إذا لم تتجدد، أو إذا لم تستطع مواصلة السير إلى الأمام. وهذا هو الموقف الأليم الذي عرفناه بعد القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي - دون أن نفكر في الخروج منه، كما فعل هؤلاء؛ لأنَّ نفراً من أعلام مفكري الإسلام نجحوا في إقناع الناس بأنَّ السعادة في هذه الدنيا: لا وجود لها. ومن ثمَّ، فمن العيش البحث عنها. وأنَّ السعادة لا توجد إلا في الحياة الآخرة، ومن ثمَّ فلا بدَّ من تركيز جهد الإنسان كله في ضمان وصوله إلى سعادة الآخرة عن طريق العبادات، والزهد في كل ما تقدمه هذه الحياة من خيرات. ويلفت الدكتور حسين مؤنس<sup>[5]</sup> إلى مثال الإمام الغزالى في كل مؤلفاته، وخاصة "إحياء علوم الدين". كذلك، يقترب كثير من فلاسفة الغرب في القرن السابع عشر من الرؤية القرآنية التي تربط قيام الحضارة، والتقدم؛ بالأخلاق: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْبَى آمَنُوا) (الأعراف/ 96). كما تربط شقاء الإنسان وبؤسه؛ بفعل إعراضه عن الاستقامة على ذكر الله، وما يتضمن هذا الذكر من محبة وتفاعل مع القيم الإلهية: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) (طه/ 124). ونسبيًّا من هؤلاء الفلاسفة الكبار "إدوارد جيبون 1713-1671"، وهو الذي وصف الفترات الذهبية - كما يقول - في تاريخ الإنسانية؛ بأنها قليلة، بل نادرة، وهي أشبه بالجزائر في محيط لجيٍّ من الظلمت. وهو في كتابه عن قيام الدولة الرومانية وسقوطها؛ يلتفت إلى أن أزمة التدهور والسقوط في حياة الأمم موصولة بأزمة النفس البشرية. ويکاد كلامه يطابق المنظور القرآني الذي يربط أزمات الخارج الإنساني؛ بالخلل الذي يصيب داخله في نفسه: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) (الرعد/ 11). ولقد ذهب "جيبون"

إلى أنّ السبب الأكبر في الفساد يكمن في ضعف الإنسان، وما ركّب في طبعه من الرذائل، وقال: "إنّ الدول كبيرة وصغيرة إذا قامت، وبلغت أوجها، عادت فسقطت في وقت محسوب؛ لأنّ الطبيعة البشرية لا تملك من الفضائل والقوى المعنوية، ما يمكن لها من إقامة بناء فاضل حقاً. هي بدأت فاضلة إذاً، ثمّ لم تلبث أن تنحرف عن الصواب بتأثير من طبعها" [6]. فإذا صحّ ما قيل من أن رصيد الحضارة يزداد مع السنين؛ أي أن هناك تزايداً رغم كل شيء؛ في الثروة الحضارية التي تهيئ الطريق إلى السعادة والتقدم. وربما لمزيد من الفضائل أو مزيد من الإحساس بها على الأقل، فإن من أكبر عوامل تبديد هذه الثروة هو النزوع إلى القطع الحضاري، أو النزوع إلى مقولات التصادم بين الحضارات، والتي روّج لها "صومئيل هانتنفتون". وهي من أخطر المقولات المعادية للتصور القرآني؛ عن آفاق التقدم البشري، وصلته الموضوعية بتعارف الحضارات (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُّوبًا وَقَبَائِيلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّمَا كَرِمَ اللَّهُ أَتْقَانَمْ (الحجرات/ 13). وكأنّ القرآن الكريم من وراء آياته البيّنات - عندما يؤسس لمصطلح الأمراض التي تصيب الإنسان في عقله وتفكيره وروحه وإيمانه - فإنه يلفتنا إلى استحالة أن ينهض المجتمع المريض إلى أسباب تقدمه؛ من غير علاج يرجو له الشفاء من جميع أدواته. ولقارئ القرآن، أن يتلو ما تيسير من آيات الشفاء. لا يتسع أمامنا المجال؛ لكي نتبع هداية القرآن إلى فكرة التقدم من جميع جوانبه. وتكتفينا الإشارة، إلى أنّ ما قصد إليه القرآن من دعوة إلى تحريك العقول، والإرادات؛ بالتفكير والنظر والتدبر؛ تقاد تقدّم على لبّ المنهج إلى تحقيق شروط التقدم، وبكل تفكير سوي، وقول سديد، يضع حركة التقدم. ويصحّ عندي القول بأن مسيرة التقدم الإسلامي؛ لم تتوقف مع نشوء أنظمة الاستبداد التي أغفلت على أمتنا منافذ التفكير. ولكنها - أي المنافذ - أغلقت تماماً مع نشوء ظاهرة انتشار العقل الإسلامي إلى عقل ديني وآخر لا ديني، لتغدو عوامل هذا الانفصال مصدراً من مصادر الإعاقة والفتنة التي تصادر معنى التقدم من الأساس.

الهوا مش:

[1]- الدكتور عفت الشرقي، في فلسفة الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، 1981، ص174. [2]- عفت الشرقاوي، مصدر سابق، ص177. [3]- عبد الرحمن بدوي، أشبلنجر، النهضة، 1945، ص70. [4]- الدكتور حسين مؤنس، الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيمتها وتطورها، الطبعة الثانية، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص237. [5]- حسين مؤنس، مصدر سابق.

المصدر: كتاب إجتماعيات الدين والتدبر (دراسة في النظرية الاجتماعية الإسلامية)